﴿*وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف: 156]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جـمْـعُ مـوسَى والـنّـقـبـاءِ بين دُعاءِ العُبوديَّةِ، ودُعاءِ المَسألةِ

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ بعضَ دُعاءِ موسى عليه السلام بدفعِ الضُّرِّ عند مشاهدةِ الرَّجْفَةِ[1]، حيثُ بدأَ دُعاءَهُ عليه السلام بإقرارِ الولايةِ للهِ بقولِه: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، ثمَّ أتْبعَهُ في هذهِ الآيةِ برجاءِ تحصيلِ المنافعِ بقولِه: ﴿*وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، ليكونَ دعاؤُهُ جامعًا مُشتمِلًا على ثَناءِ العبوديَّةِ، ثمَّ السُّؤالِ بدفْعِ الشَّرِّ وقِسْمةِ الخيرِ، فجَمَعَ بين دُعاءِ العُبوديَّةِ بالثَّناءِ عَلَى اللهِ، ودُعاءِ المسألةِ بعرضِ الحاجةِ وابتغاءِ العطاءِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱكۡتُبۡ﴾: مِنَ الكَتْبِ والكِتابَةِ، وأصلُهُ: إلصاقُ بدِقَّةٍ وقُوَّةٍ، ومِن ذَلِكَ: الإلصاقُ الحاصِلُ بالإلزامِ والفَرْضِ[2]، كقولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، والمرادُ هنا: اقضِ، وأوجِبْ، واقسِمْ لنا نَصيبًا ثابتًا مستمِرًّا كالشَّيءِ المكتوبِ الَّذي يستقِرُّ، ويستمِرُّ بكِتابتِه.

2) ﴿هُدۡنَآ﴾: مِنَ الهَوْدِ، وهو: الرُّجوعُ بِرِفقٍ، ومنه: الهَوَادَةُ: الحالُ تُرجَى معها السَّلَامَةُ، واليَهودُ مِن هَادَ يَهُودُ؛ إذا تاب هَوْدًا،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/378.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).

وسُمُّوًا به؛ لأنَّهم تابوا عن عبادةِ العِجلِ[1]، والمرادُ بـ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، أي: تُبْنَا؛ إذ في التَّوبةِ هَوَادَةُ حالٍ وسلامةٌ، والهُودُ جمعُ هائِدٍ، وهو التَّائِب[2].

3) ﴿أُصِيبُ﴾: يُقال: صَابَهُ وأصابَهُ، وجُعِلَ الصَّوبُ لنزولِ المطرِ؛ إذا كان بقدَرِ ما ينفعُ، وإلى هذا القدَرِ منَ المطرِ أشارَ بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: 18]، وأصابَ السَّهمُ؛ إذا وصل إلى المَرمَى بالصَّواب، والمصيبةُ: أصلُها في الرَّميةِ، ثمَّ اختُصَّت بالنَّائِبة، نحو: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: 166]، وأصابَ: جاءَ في الخيرِ والشَّرِّ[3].

4) ﴿وَرَحْمَتِى﴾: الرَّحمَةُ رقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ، وقد تُستعمَل تارةً في الرِّقَّةِ المجرَّدةِ، وتارةً في الإحسانِ المجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ، نحو: رحِمَ اللَّهُ فلانًا، وإذا وُصِفَ بهِ الباري - ﷻ - فليس يُرادُ بهِ إلَّا الإحسانُ المجرَّدُ دون الرِّقَّة[4]، وعلى هذا؛ فالرَّحمةُ مِنَ اللَّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومنَ الآدميِّين رِقَّةٌ وتعطُّفٌ.

5) ﴿وَسِعَتْ﴾: السَّعةُ تُقال في الأمكنةِ، وفي الحالِ، وفي الفعلِ، كالقُدرةِ والجودِ، ونحو ذلك، والوُسعُ مِنَ القدرةِ ما يفضلُ عن قدَرِ المُكَلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، ومعناهُ: يكلِّفه ما يُثمِرُ له السَّعةَ، أي: الجنَّةَ ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [ال عمران: 133]، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ﴾ [طه: 98] وصفٌ له سبحانه كما قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 130] والمرادُ: سَعةُ قدرتِهِ وعلمِهِ ورحمتِه وإفضالِه[5].

---

(1) تعددت أسباب تسمية اليهود بهذا الاسم؛ فقيل في ذلك أقوال منها؛ أولاً: أنهم سمُّوا يهودًا نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل الذين بعث فيهم موسى ﷺ فقلبت العرب الذال دالًا. ثانيًا: نسبة إلى الهَوَد: وهو التوبة، والرجوع، وذلك نسبة إلى قول موسى ﷺ لربه: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، أي: تبنا ورجعنا إليك يا ربنا. قال ابن منظور: الهود: التوبة، هادَ يهود هودًا، وتهوَّد: تاب ورجع إلى الحقِّ؛ فهو هائدٌ، وقومٌ هُوْد مثل حائك وحُوك، وبازل وبُزْل. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (هود). ثالثًا: نسبة إلى التقرُّب والعمل الصالح، قال زهير بن أبي سلمى:

سوى رَبَعٍ لم يأتِ فيه مخافةً *** ولا رهقًا من عابد متهوِّد

فالمتهوِّد: المتقرب، والتهوُّد: العمل الصالح. رابعًا: من الهوادة، وهي المودّة، فكأنَّهم سمُّوا بذلك؛ لمودَّة بعضهم بعضًا. يُنظر: محمد الحمد، رسائل في الأديان والفرق، ص: 63، 64.

(2) ابن دريد، الجمهرة: 2/689، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هود)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/264.

(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رحم).

(5) الرّاغب، المفردات: (وسع).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دُعـــاءُ مـوسى وابـتـهـالُـهُ، وإجـابـةُ رَبِّـهِ لَـه بـما يَـزدَعُ الـعـاصِـين، ويَنْفَعُ الطَّائعين

بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ موسى ﷺ واصلَ دُعاءَهُ، فقال: واقسِمْ لنا - يارَبُّ - في الدُّنيا ما يَحسُنُ منَ الأحوالِ والأعمالِ والعواقبِ، وفي الآخرةِ المثوبةَ الحسنى بالجنَّةِ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ، إنَّا رَجَعْنا تائبين إليكَ، قال اللّهُ تعالى لموسى: عَذابي أُصيبُ بهِ مَن أشاءُ مِن خَلقي، كَما أصبْتُ هؤلاءِ الَّذين أصبْتُهم من قَومِك، ورَحْمتي وسِعتْ خَلقي كُلَّهم، فَسأكتُبُها للذين يخافُونَ اللّه، ويخشونَ عِقابَهُ، فيؤدُّونَ فَرائضَهُ، ويجتَنِبونَ معاصيَهُ، والَّذين هم بدلائلِ التَّوحيدِ وبراهينِهِ يصدِّقونَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾:

الـجَـمْـعُ بَـينَ الـثَّـنـاءِ على الـلـهِ، وسُـؤالِ الـحـاجـاتِ اللّازمةِ

الواو عاطفةٌ مدخولَها على أوَّلِ الدُّعاءِ قبلَها؛ استتمامًا لهُ، ونسَقٌ عليه، ودلالتُها هاهنا: الجَمْعُ بينَ آحادِ الحوائجِ المسؤولَةِ في الإجابةِ والحصولِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ أحدَها لا يَتِمُّ مِن غيرِ الآخَرِ، فهي لوازمُ لا تَنفَصِمُ، وكلُّ حاجةٍ منها يُسلِمُ لتحقيقِ ما بعدَها، وفائدةُ الجَمْعِ المذكور: إيقاعُ الأدعيةِ على نحوٍ جامعٍ في المباني والمعاني والمقاصد، وفيهِ أيضًا: أنَّ المخلوقَ لا يَسعدُ إلَّا باجتماعِ الأحوالِ التَّامَّةِ له في الدُّنيا والآخرة.

سِرُّ عدَمِ ذكْرِ لفْظِ (ربّنا) والاكتفاءِ بالمدْعُوِّ به فقط:

عـــدَمُ تـوقـيرِ قـومِـهِ رُبـوبـيَّـةَ اللهِ وإحسانَهُ، هلاكٌ وخَيْبةٌ

السُّؤالُ هنا من موسى ﷺ وقد ذكرَ قبل ذلك قولَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّـٰيَ﴾، فجاء قوله: ﴿*وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عقيبَ وعيدٍ وجنايةٍ في قوله: ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: 155]، وقوله: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾

(1) مجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 231، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسّر، ص: 170.

[الأعراف: 155]، وقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: 155]، فالمقامُ مقامُ ترهيبٍ لا ترغيبٍ، ومقامُ استغفارٍ واعتذارٍ، ولذا توسَّلَ بالعملِ اعتذارًا، فقال: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، ولم يذكرْ لفظَ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لأنَّ قومَه لم يوقِّروا ربوبيَّةَ اللهِ عليهم بإحسانِه السَّابقِ عليهم، فأخذتْهُم الرَّجفةُ.

دَلالةُ الطَّلَبِ، في قولِهِ: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾:

إثباتُ المطلوبِ وتحقيقُهُ، مَقصودٌ في السِّياقِ

قولُهُ: ﴿*وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ أي: عَيِّنْ لنا، وقيل: أوجِبْ وحقِّقْ وأثبِتْ[1]، فهو يدلُّ على الطَّمعِ وحُسْنِ الرَّجاءِ بعدَ الاستغاثَةِ والإشفاقِ الوَارِدَينِ في قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، وحُسْنُ الرَّجاءِ باشتمالِ الدُّعاءِ على سؤالِ الحُسْنى، فهوَ أدبٌ حسَنٌ، وفِقهٌ في المقاصدِ بعيدٌ، وفي الطَّلبِ إشفاقٌ من عاقبةِ مفهومِهِ المُقابِلِ، أي: إن لم تكتبْ لنا الحسنى؛ ضِعْنا في الدُّنيا، وخَسِرْنا في الآخِرَةِ، فاجتَمعَ في التَّركيبِ حُسْنُ الرَّجاءِ مع الخوفِ الشَّديدِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكِتابةِ دونَ الإيتاءِ:

لَفْظُ الكِتابةِ مُستعارٌ لمعنَى العطاءِ المُحقَّقِ حصُولُهُ، المُجَدَّدِ مرَّةً بعد مرَّةٍ

اصطفاءُ لفظِ الكتابةِ في قوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ هو تعبيرٌ بلفظٍ يفيدُ الضَّمانَ والوثوقيَّةَ، والتَّعبيرُ بالكتابةِ كنايةٌ عنِ الإجابَةِ أو كَيْفِيَّتِها؛ لأنَّه متى أجابَ؛ فقد كَتَبها، لكنَّ الكتابةَ تفيدُ معنًى زائدًا عنِ الإجابةِ، وهي أن يقعَ هذا الجوابُ على كَيْفِيَّةِ الشَّيءِ المكتوبِ منَ الثُّبوتِ وعدمِ الانقطاعِ، وسببُ هذا الاصطفاءِ خوفُ الفواتِ، أو ظنُّ عدمِ الاستحقاقِ، وكلاهما حاصلٌ من عِلمِ موسى بمقدارِ قومِهِ. وفي هذا المعنى يقولُ ابن عاشور: "﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ مُستعارٌ لمعنى العطاءِ المُحقَّقِ حصُولُهُ، المُجَدَّدِ مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لأنَّ الَّذي يريدُ تحقيقَ عقدٍ أو عِدَةٍ أو عطاءٍ وتجَدُّدَهُ في المستقبل، يكتبُه في صَحيفةٍ، وفيه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

إشارةٌ إلى حصولِه مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لأنَّه لو كان لمرَّةٍ واحدةٍ لا يحتاجُ إلى الكتابَةِ[1]".

دَلالةُ تقديمِ ﴿لَنَا﴾، في قولِه: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الـغـرضُ مِـنَ الـدُّعـاءِ نفعُ النَّفسِ، ودَرْءُ الضَّررِ عَنها

تقديمُ ﴿لَنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ، وذلك أنَّ موسى ﷺ طلبَ الغُفرانَ والرَّحْمَةَ والحَسَنَةَ في الدَّارين لِنَفْسِه ولأمَّتِه خاصَّةً بقولِه: ﴿*وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾[2].كما أنَّ في التَّقديم دلالَةً على الاهتمامِ وإظهارِ العنايةِ بذاتِ المدعُوِّ؛ لأنَّه محلُّ الانتفاعِ بالدُّعاءِ دونَ النَّظرِ إلى ظرفِ الإجابةِ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ، ولذا فالتَّقييدُ بالظَّرفِ: ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ليس مقصودًا أصالةً في الدُّعاء، بل هو جارٍ مَجْرَى العادةِ في ارتباطِ الأحداثِ بظروفِها المُتعدِّدَةِ، فيُذكرُ كلَّ ظرفٍ منها على جهةٍ بألَّا تتباينَ أحوالُهُ فيهما بتبايُنِها، وغرضُ الاهتمامِ مُطابِقٌ للحالِ؛ لأنَّ الدَّاعي قد أهمَّتْهُ نفسُهُ، فلا جرمَ أنِ اهتمَّ بها في التَّقديمِ، وتقديمُ ضميرِ الذَّواتِ على المفعولِ ﴿حَسَنَةً﴾؛ لتأخُّرِ الأعراضِ عن جواهرِ الذَّواتِ وجودًا، فلا جرمَ تَأخُّرُها عنها في لفظِ المسألةِ، ولأنَّ الذَّواتَ آلةُ اكتسابِ الحسناتِ، فلا جرمَ قدَّمَ مَن لهُ السَّبقُ في الكَون.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بنُونِ الجماعَةِ ﴿لَنَا﴾:

نيابةُ الأنبياءِ عن أقوامِهم في الدُّعاءِ والاستِغفارِ، بركَةٌ وقَبولٌ

التَّعبيرُ بنونِ الجماعةِ في قولِه: ﴿*وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ دالٌّ على سببِه، وهو أنَّ النَّبيَّ إمامُ قومِه، فكما كان إمامَهُم في الاختيارِ منهم: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: 155]، فهو أيضًا إمامُهُم في الاستغفارِ عَنهم، ولذا اطَّرَدَ ضميرُ المتكلِّمين في كافَّةِ دُعائِه: ﴿وَلِيُّنَا﴾ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ ﴿*وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ ﴿إِنَّا هُدۡنَآ﴾، وهو دالٌّ على أنَّ الأنبياءَ أرحمُ النَّاسِ بالنَّاس، وفيه: أنَّهم شفعاءُ الأممِ عندَ اللهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 128/9.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 6/604.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالظَّرفيَّةِ: ﴿فِي﴾:

الـظَّـرفـيَّـةُ مجازِيَّةٌ، والأداةُ (في)، لها معانٍ شتَّى

ظرفيَّةُ (في) هنا مَجازيَّةٌ، ومعناها: يدلُّ على الوعاءِ والاشتِمالِ، ويفيدُ التَّمكُّنَ وشدَّةَ الالتصاقِ، والإغراقَ، والمبالغةَ في التَّعمُّق، والمقصودُ: أن تكونَ الحسنةُ الَّتي سألها موسى ﷺ مُتمكِّنةً في الدُّنيا، مشمولةً فيها، حتَّى يُغرِقَها حُسْنُ الحسنةِ، وتتعمَّقَ في جوانبها جميعًا؛ لتنصلحَ لهم بها، فكأنَّ دنياهم وعاءٌ قد أُغلِق على الحسنةِ الَّتي سألوها، فلازَمتها، ولم تنفكَّ عنها، وهم مُتلبِّسون بها، مُتَّصِفونَ بِحُسْنِها[1].

سِرُّ الإشارةِ بـ ﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾:

الإشارةُ للتَّهْوينِ مِنها، والنَّعْيِ عليها

(أل) إذا وقعَتْ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ فَهي للعَهدِ الحضوريِّ، واسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ مُستعمَلٌ في المؤنَّثِ القريبِ، والإشارةُ إمَّا تفيدُ المدحَ وما في معناه، أو تفيدُ الذَّمَّ وما في معناه، فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] للتَّنويه بقُرب هدايتِه مع تعظيمِه، وقد تُستعمَلُ بغرضِ الذَّمِّ أو التَّقليلِ من ذات الشَّيءِ كقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41]، و﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ من هذا القبيلِ، فقد أشارَ إليها بـ(هذه) للقريب، ودخلت عليها (أل) الَّتي أفادتِ العهدَ الحضوريَّ، مع استحضارِ معنى وصفِها بالدُّنيا[2]، فأفادتِ الإشارةَ إلى التَّهوين منها والنَّعي عليها، فالإشارةُ إليها إشارةُ القريبِ، مع تضمُّنِها وصفًا نازلًا في الرُّتبةِ، وهو الدُّنوُّ، مع إفادة (الـ) فيها إلى حضورِها قرائِنَ متماسِكةً على أنَّ الإشارةَ لغرض استحضارِ زوالِها وسرعةِ انقلابِها بأهلها، أي: هذه الدُّنيا الَّتي هي أدنى وأقربُ للفَوْتِ والتَّلاشي[3].

---

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 124.

(2) فلفظُ الدُّنيا باقٍ على الوصفيَّة، فهو اسمُ جنسٍ مقرونٌ بأل المعرفة، وإن جُعِلَ علمًا على الأوقات أو على المرحلةِ المؤقَّتةِ، فأل فيه لِلَمْحِ الأصل.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/104.

سِرُّ الاكْتِفاءِ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ ذِكْرِ (الحياة الدُّنيا):

تَجيءُ (الدُّنيا) في سياقِ الدُّعاءِ، مُجـرَّدةً عن وصْفِ (الحياة)

يُؤتَى بالمركّب الإضافيّ: (الحياة الدُّنيا) حينما تكونُ على مراد النَّاسِ منها، وأمَّا مرادُ اللهِ فيها، فيُعبَّرُ بلفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فقط، ولذا تجيءُ في تراكيبِ الدُّعاءِ مُجرَّدةً عنِ الحياة؛ لأنَّ الدُّعاءَ موصولٌ بمرادِ اللهِ، وكأنَّ الدُّنيا لمّا كانَت عاجلةً ومتاعَ غرورٍ ودارَ ابتلاءٍ لم تكن حياتُها حياةً حقيقيَّةً، ولذلك فقولهُ تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد: 20]، فسمَّاها حياةً بحسبِ مرادِ النَّاسِ منها، ثمَّ أخبرهم أنَّها ليست حياةً، بل هي اللَّعِبُ واللَّهوُ والزِّينةُ والتَّفاخرُ والتَّكاثرُ ومتاعُ الغرور، وحين يقولُ مؤمنُ آلِ فرعونَ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ [غافر: 39] فوصفَها بالحياة، ليقرِّرَ مرادَهم وظنَّهم فيها، ثمَّ يدفعُه بوصفِها متاعًا زائلًا، بطريق القصرِ والتَّحقيق، فبهذا التَّأسيسِ تُخرَّجُ الآياتُ الَّتي جُرِّدَت فيها الدُّنيا عنِ الحياة، أو اقترنَت بها، مع مُراعاةِ كلِّ سياقٍ، ولَمْحِ هذا الأصلِ فيه.

ويضافُ إلى ذلك، أنَّ وصفَ الحياةِ الدُّنيا يأتي غالبًا في سياق الذَّمِّ، والآياتُ الشَّاهدةُ على هذا كثيرةٌ، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ [محمد: 36]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 212] بخلاف لفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، فيأتي غالبًا في سياق أهلِ الإيمانِ الَّذين يعرفون حقيقتَها، فلا يعطونها أكثرَ من قدرِها، يؤكِّد ذلك ما وردَ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201].

سِرُّ تَقْديمِ الدُّنيا على الآخِرةِ:

مَجيءُ الخطابِ وَفْـقَ زمـانِ الملابسةِ، ضَرورةٌ تقتضِيها مراعاةُ مُقتَضَى الأحوالِ

الأصلُ الغالبُ أنَّ الدُّنيا مُقدَّمةٌ على الآخرةِ وجودًا وذِكرًا، والثَّاني لازمٌ عنِ الأوَّل، والأصلُ في الخطاب أن يقعَ ترتيبُهُ بحسب الحاضرِ ثمَّ المستقبلِ، فمجيءُ الخطاب وَفْقَ زمانِ الملابسةِ هو ضرورةٌ تقتضيها مراعاةُ مُقْتَضَى الأحوال، وأمَّا مجيئُها بعدَ الآخرة، كقوله:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الشّورى: 20]؛ فالمقدَّمُ على الحقيقة هو المُريدُ، وليس المرادَ، فالاعتبارُ في التَّقديم والتَّأخير لمُريدِهما أصالةً، وهما مقصودان تبَعًا، ولذا جاء الكلامُ على الاستعارة التَّصريحيَّة في تشبيه عملِ العاملِ، وما يرتجيه من عائدِه وثمرته، بالحرث، حَذَفَ المشبَّهَ: وهو العملُ، وأبْقَى المشبَّهَ به: وهو الحرثُ، بجامع ابتغاءِ العائدِ والجزاءِ في كلٍّ، فالآيةُ مَسوقةٌ للمقابلة في الجزاءات والعوائدِ، ولذا جاءَت بصيغة الشَّرطِ والجزاء، والمقابلةُ في الجزاء تكونُ لغرض المفاضلةِ ومماثلةِ الجزاءِ الأعلى على الأدنى، ولذا كان منَ البديهيِّ أن يتقدَّمَ مُريدُ الآخرةِ وعملُه وجزاؤهُ على مريدِ الدُّنيا وعملِه وجزائِه[1].

سِرُّ التَّعبير بلفْظِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾:

الدُّنيا تأتي مع الآخرةِ على اعتبارَيْن للمقابلةِ المُطلَقةِ، أو للتَّقابُلِ التَّفاضُليِّ

الضَّابطُ: أنَّ الدُّنيا تأتي على اعتبارين، الاعتبارُ الأوَّلُ: مقابلتُها مع الآخرةِ لمُطلَقِ اقترانهما جريًا على عادة اقتران النَّظيرين المتقابلين المتلازمَين، وهذا سياقُه سياقُ قصدِ الإخبارِ عنهما في حيِّزهما الواردَين فيه من غير اعتبارِ مدحٍ ولا ذمٍّ. الثَّاني: الاقترانُ بقصدِ التَّقابلِ التَّفاضليِّ في الحقيقة والجزاء، فحينما يُرادُ بالدُّنيا الأوَّلُ: تأتي بلفظ الدُّنيا لغرض المرورِ عليها كمرحلةٍ مُوجزةٍ، وتُوضعُ الآخرةُ في مقابلِها لمجرَّدِ استحضارها كمرحلةٍ باقيةٍ، وهذا هو الحاصلُ هنا، فالغرضُ هو إرادةُ أن تكونَ الدُّنيا والآخرةُ بالنِّسبة للدَّاعي محلَّيْن سالمَين له، وسالمًا فيهما، فالمقامُ يقتضي إيرادَهما بالوصف الَّذي غلبتْ تسميَتُهما به، لا بالأوصاف الفرعيَّةِ الَّتي تُساق لغرض المفاضلةِ في الحقيقةِ والجزاءِ، ويُلمَحُ فيها وفي سياقها قصدُ لوازمها الدِّلاليَّة منَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والمدحِ والذَّمِّ، والتَّهوينِ

(1) أجاز مجمع اللغة العربية بقاء الياء في النسب إلى (فَعِيلَة).

والتَّهويلِ، والتَّقليلِ والتَّكثيرِ، وكافَّة الأضداد الَّتي تجري عليهما معًا، ومن هذا: التَّعبيرُ بالعاجلة، ولم يردِ الوصفُ بها إلَّا في ثلاثةِ مواضعَ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: 18]، ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: 27]، ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ [القيامة: 20]، والسِّياقُ شديدُ الظُّهورِ في ذمِّ من يجعلها محلَّ الهِمَّةِ والمحبَّةِ، ثمَّ بالغ في توبيخ هذا المريد المُحِبِّ، بأن وصفَها بالعاجلة، وهو نعيٌ على عقلِ مَن يتعلَّقُ بعاجلٍ لا يستمرُّ، ولا يستقرُّ، أنَّى له أن يفعلَ ذلك، وهو عاقلٌ!

سِرُّ الإفرادِ في لفظِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

عـــدَمُ جـمْـعِ (الـدُّنـيـا) مع صـحَّـتِـه لُـغـةً، لاعتبارِ حقيقتِها المـــوحَّـــدةِ لا الموزَّعةِ

الدُّنيا (فُعلى) تأنيثُ أفعلَ (أدنى)، وجمعهُا (فُعَل)، ككُبرى كُبَر[1]، وعدمُ جمعِها مع صحَّتِه لغةً، لاعتبار حقيقتها الموحَّدةِ لا الموزَّعةِ، والحقيقةُ الموحَّدة بحسب تكوينها الموحَّدِ، وبحسَب كلِّ واحدٍ بذاته، فهي دنيا واحدةٌ، ومرحلةٌ واحدةٌ بالنِّسبةِ لخالقها - ﷻ - مهما تمتدُّ، ولذلك لم تُجمَعْ لفظةُ ﴿حَيَوٰةِ﴾ في القرآن، لاعتبار أصلِها التَّكوينيِّ والحقيقيِّ بالنِّسبة لله، وإن تعدَّدَت مُتعلَّقاتُها وتوزَّعَت، ولذلك قال الله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، وليسَت تُجمَع باعتبار توزُّعِها وإضافتها المُتعدِّدةِ للأفراد.

دَلالةُ صِيغةِ وزنِ (فُعلى) للدُّنيا:

معـاني الآفـاتِ والـنَّـقـصِ، والمـكـروهِ والـتَّـوجُّـعِ، لَصِيقةٌ بالدُّنيا

الدُّنيا بضمِّ الدَّالِّ على وزن (فُعلى) مؤنَّثُ الأدنى، بمَعْنَى الأقربِ، وهي اسمٌ لهذه الحياة، لِبُعدها عنِ الآخرة، ودنيا: انقلبتِ الواو فيها ياءً؛ لأنَّ (فُعلى) إذا كانت اسمًا من ذواتِ الياءِ؛ انقلبَت واوها ياءً، كما أُبدِلَتِ الواوُ مكانَ الياء في (فُعلى)، وَوِزانُ (فُعلى) دالٌّ على الآفاتِ والنَّقصِ والمكروهِ والتَّوجُّعِ[2]، وهذه الدِّلالاتُ لَصيقةٌ بتلك الدَّار، بل نصَّ عليها القرآنُ، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (دنو)، وابن منظور، لسان العرب: (دنا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دنا)، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية العربيّة، ص: 140.

مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ [البقرة: 155]، ﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا﴾ [الكهف: 45]، وارتبطَ بها الفناءُ والهلاكُ، فقال: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرّحمن: 26] ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88].

سِرُّ اخْتِيارِ الدُّعاءِ بـ﴿حَسَنَةَ﴾ دونَ غيرِها:

دَلالـةُ الحُسْنِ عـلى الإطـلاقِ، فكانتْ أحْسنَ مـا يُصطَفَى للدُّعاءِ

قوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً﴾، نجد مادَّةَ (حسن) تحملُ مَعْنَى المبالغةِ في إظهارِ حُسنِ الشَّيءِ، فهو حُسنٌ ظاهرٌ وباطنٌ[1]، وقد استُعملَت هذه المادَّةُ ومشتقَّاتُها في نطاقٍ واسعٍ جدًّا، فشمَلَتِ القولَ والعملَ والجزاءَ والجنَّةَ، ومنها المرتبةُ العليا في المعاملةِ مع اللّهِ: وهي الإحسانُ، وهو بابٌ يطولُ في تشريحِ مواقعِها ودلالتِها.

والخلاصةُ: أنَّ الدُّعاء بـ﴿حَسَنَةَ﴾ أُوثِرَ هاهنا لأمورٍ: **أولها:** لدلالتها في ذاتها، وأصلُ صيغتِها على أحسن ما يكونُ في كلِّ شيءٍ، والأحسنُ يُؤثَر، ولايُؤثَر عليه، **ثانيها:** لدلالتها على مُطلَقِ الصِّفةِ، فهي لا تُستعمَلُ فيما هو نسبيٌّ، فدلالتُها مُطلَقةٌ لا نسبيَّةٌ، ولذا تعلَّقَت بتركيبِ الدُّعاءِ للدَّلالة على هذا العمومِ والإطلاقِ، فلو قال مثلًا: واكتبْ لنا في الدُّنيا خيرًا، لم يدلَّ على العمومِ بمادَّته؛ لأنَّ الخيرَ وصفٌ نسبيٌّ قد لا يعبِّرُ عنِ الحقيقةِ المُطلَقةِ، ولذلك جاءَ في سياقِ الذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8]، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: 19]، ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [ص: 32]، وأمَّا الحُسْنُ؛ فهو مُطلَقٌ، فكان أحسنَ ما يُصطَفَى في مَواقعِ الدُّعاء؛ لأنَّه مقامُ التماسِ الأحسنِ، وهو مقامٌ يُبتغَى فيه المُطلَقُ العامُّ، لا النِّسبيُّ المُحتمَلُ[2].

(1) كلُّ ما جاء في القرآن من هذا التَّركيب فأصلُه مِنَ النَّقاء الظَّاهريِّ والباطنيِّ، ويُفسَّرُ بالطَّيِّب المستحلي أو المستحب صورةً كان أو مُقامًا أو قولًا أو عملًا أو أداءً أو تصرُّفًا ومعاملةً مع النَّاس. يُنظر: جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسن).

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 235 - 300، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 259.

ويُضاف إلى ذلك في سرِّ التَّعبيرِ بها: أنَّها تجمعُ خيرَي الدُّنيا والآخرة، فالمرادُ بها الحالةُ الحسنةُ، وهي مُرضِيَةٌ للنَّاس في الدُّنيا، وفي الآخرة حالةُ كمال[1].

دَلالةُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿حَسَنَةَ﴾:

النَّكِرةُ في سِياقِ الدُّعاءِ تعمُّ

التَّنكيرُ يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سياق الدُّعاءِ تعمُّ[2]، والمرادُ استغراقُ كلِّ حالةٍ حسنةٍ، فهو جمعٌ بين خيرَي الدُّنيا والدِّين والعاجل والآجل.

دَلالةُ عدَمِ ذكْرِ الفعْلِ ﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ مع ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

العَطْفُ يُغنِي عن إعادة ذِكْرِ العامِلِ

لم يُذكرْ لِعدمِ موجبِهِ، فحذْفُهُ في الثَّاني مدلولٌ عليه بذِكرِه الأوَّل، ولذلك عُطِفَا؛ لأنَّ العطفَ يُغني عن إعادةِ ذِكْرِ العاملِ، وأيضًا: تكرارُ الفعلِ يدلُّ على قصديَّةِ استقلالِه بالعناية أو المغايرة، بمعنى: أنَّ القائلَ يقصدُ التَّنبيهَ على مزيد عنايته بالآخرة، أو يقصِدُ مطلوبًا في الآخرة ليس من جنس مطلوبِهِ الأوَّلِ في الدُّنيا، ولذا يُكرِّرُ العاملَ لإرادة التَّباينِ وعدمِ التَّشريكِ في القصد والحكم، وتلك القصديَّةُ في التَّفريق غيرُ مُرادةٍ في دعاء الدَّاعي؛ لأنَّ الدُّنيا جزءٌ منَ الآخرة، ولا انفصالَ بين العملِ والجزاءِ عليه، فإرادةُ الكَتْبِ حاصلةٌ على السَّواء فيهما، وإعادةُ فِعلِه إخلالٌ بمُقتَضى الإيجازِ وداعيهِ في النَّظم، ويؤكِّدعدَمَ بلاغةِ التَّكرارِ هنا حذْفُ المفعولِ ﴿حَسَنَةَ﴾ منَ الآخرة.

دَلالةُ (الواو) في: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الجمْعُ بين حَسَنةِ الدُّنيا وحَسَنةِ الآخرة، جمْعٌ بين الحسنَتَيْن

الواو تدلُّ على الجمعِ وقَصْدِ التَّشريكِ في مضمون الطَّلب، أي: اجمعْ لنا حسنةَ الدُّنيا مع حسنةِ الآخرة كذلك، واجعلْهما معًا في كتابةِ ذلك وثبوتِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.

سِرُّ تَكرارِ الظَّرفيَّةِ بـ﴿فِي﴾ مع الآخرةِ:

رفْـعُ تَـوهُّـمِ اختِصاصِ الدُّنيا بالظَّرفيَّةِ دونَ الآخِرةِ

كُرِّرَتِ الظَّرفيَّةُ لإثبات أنَّ الحسنةَ مطلوبةٌ في كلِّ الأحوال، فلو زال الحرفُ (في) مع لفظ الآخرة؛ لاحتملَ اختصاصُ الدُّنيا بمعنى الظَّرفيَّة المذكورِ دونَ الآخرة، ولأنَّ حصولَ مَعْنى الظَّرفيَّة في الدُّنيا لا يلزمُ عنه حصولُه في الآخرة، فثبتَ - ضرورةً - لحوقُ حرفِ الوعاءِ بالآخرةِ، بلْ وأولويَّةُ لُحُوقِهِ؛ لِأَنَّ دخولَه في مقامِ الجزاءِ أولى وأجدَرُ.

سِرُّ عدَمِ تَكرارِ لفْظِ ﴿حَسَنَةً﴾ مع الآخِرةِ:

طَـوَى الحسنةَ الأُخْـــرَى في الـذِّكْـرِ، كما هي مَطويَّةٌ في الغيْبِ

اكتفى بحسنَةِ الدُّنيا اكتفاءً منهم بوسيلة العملِ، وأمَّا الجزاءُ عليه؛ فمطويٌّ عنهم فطُوِيَ في كلامهم: لدلالة الحسنةِ الأولى عليها ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اكتفاءً بدلالة السَّابق، وللإيذان باختلاف نوعَي الحسنتَين[1]، فحسنةُ الدُّنيا غيرُ حسنةِ الآخرةِ، قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21]، ولأنَّ حسنةَ الآخرة ليستْ عملًا، بل هي جزاءٌ على حسنةِ الدُّنيا، فاكتفى بالحسنة المشهودةِ، وَطوى الحسنةَ الأخرى في الذِّكرِ، كما هي مَطويَّةٌ في الغيب، وإنَّما طُوِيَتْ في هذا الموضعِ؛ لأنَّهم توسَّلوا بالعمل، وجعلُوه عِلَّةً للدُّعاء في قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، فاكتفى بحسنةِ الدُّنيا؛ لمناسبتها وسيلةَ العملِ والحالِ المذكورة، ويصِحُّ أنَّ حذْفَ المعمولِ مع ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لاحتمالِ عدَمِ توفُّرِ عنايةِ الدَّاعي به عنايتَه بحسنة الدُّنيا؛ لقوَّة حضورِ سببِ الأخير ومعاينتِه بحدوث الرَّجفةِ، فسألَ حصولَ ما يندفعُ به البلاءُ الحاضرُ الَّذي أحوجَهُ للانشغال والهمِّ به من غيره، ولكون حصولِ حسنةِ الدُّنيا بعد هذا الموقف أمارةً على حصول حسنةِ الآخرةِ، فاكتفى بذكْرِ حصولِ الملزومِ (الأمارة) عن حصول لازمِها (حسنة الآخرة)، أو أنَّ ضِيقَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.

المقامِ أحوجَ الدَّاعيَ موسى ﷺ لحذْف المعمولِ مِنْ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِكونِ دُعائهِ بعد توجُّعٍ وتفجُّعٍ.

سِرُّ الاكْتِفاءِ بالصِّفةِ دونَ الموصوفِ:

رعـايـةُ حُـسْـنِ المـقـابَـلـةِ من مَواقعِ البديعِ

في قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ اكتفى بالصِّفة دون الموصوف، فلم يقُل: (الدَّار الآخرة) رعايةً لِحُسنِ المقابلةِ، فكما اكتفى بالدُّنيا، ولم يقُل: الحياة الدُّنيا، اكتفى بها عنِ الموصوف كذلك، وأيضًا: التَّعبيرُ بالموصوف (الدَّار) يأتي في سياقات التَّنبيهِ على المفاضلةِ بينها وبين الدُّنيا، ولتقرير أنَّها القرارُ، وهو ما ليس مقصودًا في هذا الموضع.

سِرُّ تأْخِيرِ طلَبِ كتابةِ الحَسنةِ في الدُّعاءِ:

دَرْءُ الـضَّـررِ، مُـقَـدَّمٌ عـلى تحصيلِ المنفعةِ

بدأ دعاءَهُ ﷺ بإقرار الولايةِ للّه بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، والوليُّ النَّاصرُ المُعينُ المؤمِّلُ في دفْعِ الضَّررِ وتحقيقِ المنفعةِ، ودرْءُ الضَّرر مُقدَّمٌ؛ فلذلك ثَنَّى بقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾، ثمَّ أتبعَهُ برجاءِ تحصيلِ المنافعِ، فثلَّثَ بقوله: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾؛ ليكونَ دعاؤُه جامعًا مُشتمِلًا على ثناء العبوديَّةِ، ثمَّ السُّؤال بدفعِ الشَّرِّ وقِسمةِ الخيرِ، وهو سرُّ تأخيرِ طلَبِ كتابة الحسنةِ في الدُّعاء.

القِيمةُ البلاغيَّةُ للمقابَلةِ بين الدُّنيا والآخِرة:

المقابَلةُ تقعُ في المعاني والمباني معًا

تظهرُ قيمةُ المقابلةِ في التَّسوية بين دارِ العملِ ودارِ الجزاءِ في رجائِهما معًا، إذِ اللَّازمُ لا ينفكُّ عن ملزومِه، ولا يكونُ إلَّا بهِ، وفيه: الإلفاتُ إلى أنَّ حسنةَ الدُّنيا ليسَت مطلوبةً لذاتِها، بل هي تتقابلُ مع جزائِها في الآخرة، وفي المقابلة إيذانٌ بأنَّ صلاحَ الدُّنيا صلاحٌ للآخرة، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ المقابلةَ في أصلها تقعُ على المعاني والألفاظ؛ إذ لو وقعَت على اللَّفظ فقط لم يحصلِ الإيجازُ في أحد طرفيها بناءً على ذِكرِه في مُقابلِه السَّابقِ عليه.

دَلالةُ فصْلِ قولِه: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَتْ هذه الجملةُ؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ واقعةٌ موقعَ التَّعليل لِمَا

إرادةُ الاستِئنافِ وقصْدُ التَّعليلِ، يُغنِيانِ عنِ الرَّبْطِ بالعطْفِ

قبلَها منَ الدُّعاء والاستجابة، وأيضًا: لوقوعِ حرفِ التَّأكيدِ في أوَّلها موقعَ الاهتمامِ، فيفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ، ويغني عن فاء السَّببيَّةِ، وورودِ العاطف[1].

دَلالةُ التَّأكيدِ بقولِهِ: ﴿إِنَّا﴾:

إظهارُ كمالِ إقبالِهم، وتحقُّقِ عزْمِهم في التَّوبةِ

دلَّ التَّأكيدُ بـ(إنَّ) على إظهار كمالِ إقبالِهم، وتحقُّقِ عزمِهم في التَّوبة، وحرصِهم على استنزالِ التَّوبةِ منَ اللّه لهم، والمعنى: "إنَّا تُبنا، ورجعنا عمَّا صنَعنَا منَ المعصيةِ العظيمةِ الَّتي جئناك للاعتذار عنها، وعمَّا وقعَ ههنا من طلب الرُّؤيةِ، فبعيدٌ من لطفِك وفضلِكَ ألَّا تَقْبلَ توبةَ التَّائبين"[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بنُون الجمْعِ في: ﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾:

إمامةُ موسَى عليه السلام في الدُّعاء لقَوْمِهِ، بابُ القَبولِ لهم

الدُّعاءُ واردٌ من موسى عليه السلام على سبيل النِّيابةِ عن جماعةٍ، وهم قومُه، فجمع الضَّميرَ، باعتبار أنَّ النَّبيَّ إمامُ قومِه، فكما كان إمامَهُم في الاختيار منهم ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾، فهو أيضا إمامُهم في الاستغفار عنهم، ولذا اطَّردَ ضميرُ المتكلِّمين في كافَّة دعائِه: ﴿وَلِيُّنَا﴾ ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ ﴿*وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ ﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾، وهو دالٌّ على أنَّ الأنبياءَ أرحمُ النَّاسِ بالنَّاس، وفيه أنَّهم شفعاءُ الأمم عندَ اللّهِ، وهو دالٌّ على الاختصاص أيضًا، أي: اكتب لنا خاصَّةً؛ لأنَّه كان يدعو لنفسِهِ ولأمَّتِه فقط.

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِهِ: ﴿هُدْنَآ﴾، دونَ غيره:

التَّعبيرُ بهذا اللَّفظِ يُناسبُ حالةَ العِصيانِ الَّتي اقْترفُوها

التَّعبيرُ عنِ التَّوبة بلفظ ﴿هُدْنَآ﴾ مِنَ الهَوْد، وهو رجوعُ الباطنِ عمَّا بَدَر في الظَّاهرِ برفْقٍ وتُؤَدَةٍ، فهو رجوعٌ خاصٌّ، يتعيَّنُ في الباطن ويشملُه، والتَّعبيرُ بهذا اللَّفظ يناسبُ، ويقابلُ حالةَ العصيان الجهريَّةَ والجماعيَّةَ الَّتي اقترفوها، فكأنَّهم يقولون: إذا كنَّا عصيناك جهرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

بطلب ما لا يليقُ بك - سبحانَك - منَ الرُّؤية، فبواطنُنا قد تشرَّبتْ بالتَّوبة، وامتلأَتْ بالضَّراعة، "فعبَّر بهذا اللَّفظ أو ما يدلُّ على معناه؛ تنبيهًا لهم على أنَّ اسمَهم يدلُّ على التَّوبةِ والرُّجوع إلى الحقِّ والصَّيرورةِ إلى الصَّلاحِ واللِّينِ والضَّعفِ في الصَّوتِ والاستكانةِ في الكلامِ والسُّكوتِ عمَّا لا يليقُ، وأنَّ يَهودَا الَّذي أُخِذَ اسمُه من ذلك، إنَّما سُمُّوا به، ونُسِبوا إليه تفاؤلًا لهم؛ ليتبادروا إلى التَّوبة"[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالماضِي ﴿هُدْنَآ﴾:

التَّعْبيرُ بالماضِي لإفادةِ التَّحقُّقِ، ومُباشَرةِ التَّلبُّسِ بالفعْلِ، فوْرَ حُصولِ مُوجِبِهِ

عبَّرَ بالفعل الماضي ﴿هُدْنَآ﴾ لإفادةِ التَّحقُّقِ منَ التَّوبةِ، وأنَّهم لم يُناجوه بالاستغفار والدُّعاء إلَّا وهم مُتلبِّسون بصلاح الباطنِ، ولإفادةِ الفوريَّةِ، بمعنى: أنَّهم بمُجرَّدِ تورُّطِهم في العصيان سارعوا بالتَّوبة، ولم يتمهَّلوا فيها، أي: تُبنا فوْرَ معصيتِنا، ومن قَبلِ توجُّهِنا بالدُّعاء إليك.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿إِلَيْكَۚ﴾ دونَ (لك)، في قولِه: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾:

تَحديدُ الغايةِ في مَقامِ العُبوديَّةِ، هو سَبيلُ الوُصولِ إلى المعبودِ

الفعلُ المُعَدَّى بالحروفِ المُتعدِّدةِ، لَه مع كلِّ حرفٍ مَعْنىً زائدٌ[2]، فإذا تَعَدّىَ الفعل بـ(إلى) أفادَ النَّصَّ على الغايةِ في الكلام؛ لأنَّ (إلى) حرفُ انتهاءِ الغاية، والسِّياقُ في مقامِ الدُّعاءِ، والفعلُ ﴿هُدْنَآ﴾ فعلُ التَّوبةِ، فهو مَقامُ عبوديَّةٍ، فنَاسَبَ أن يقولَ: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾؛ ليُحدِّدَ الغايةَ في مقامِ عبوديَّته؛ لأنَّ القَصدَ القلبيَّ والتَّوجُّهَ في هذا المقام مرتبطٌ بهذه الغايةِ الَّتي هي اللَّهُ ﷻ فعبَّر بحرفِ الانتهاء؛ ليدلَّ على مَعْنَى السَّعي المتواصِلِ في طلَبِ الغايةِ، أي: الاستمرارُ على فِعلِ التَّوبةِ حتَّى تَتحقَّقَ الغايةُ، وينتهي الفعلُ إلى آخرِ وقتِه، والتَّعبيرُ بـ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ يُفيدُ انتظارَهم للقبولِ وعدمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/104.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/20، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 104، والخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 263.

ضمانتهم له، واستمرارَهم على خُلُقِ التَّوبةِ، فَتَعديةُ الفعلِ بحرفِ الانتهاءِ أَلْيقُ في هذا السِّياقِ، وأبلَغُ في التَّأدُّبِ مع اللهِ ﷻ إذ كانَ الدُّعاءُ واردًا على لسانِ موسى ﷺ بعدَ جناياتِ قومِهِ المُتَتابِعة، ولذا لم يُناسِبْ أن يقولَ: (هُدْنَا لَك)؛ لأنَّ اللَّامَ حرفُ اختصاصٍ وتعليلٍ وتَعدِيَة، فيكونُ معناهُ جَعْلَ الفِعْلِ مُختَصًّا بالمعمول وخالِصًا له، وهو لا يُناسِبُ المقامَ هنا أبدًا، فأينَ تلك الخصوصيَّةُ، وهذا الخُلُوص بعدَ ارتكابِ الجناياتِ الَّتي تقتضِي الاستغراقَ في مُزاوَلَةِ التَّوبةِ في إشفاقٍ ورهبَة؟ فيكون التَّعبيرُ حينئذٍ بـ(هُدْنَا لَك) فيه تَقريبٌ منَ التَّوفيق والقبولِ بغيرِ مَا يَقتَضِيهِ الموقِفُ والحال، فيكونُ نُزولًا في رُتبَةِ التَّخشُّعِ بينَ يدي اللهِ، وهو ما يَتَنَزَّهُ عنه فِقهُ الأنبياءِ ﷺ بمواقِعِ الكلامِ ومناسَبَاتِ المقام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإضْمارِ في ﴿إِلَيْكَ﴾:

الإضمارُ بكاف الخطابِ مراعاةٌ لمقامِ الدُّعاءِ، فالدُّعاءُ محلُّ خطابِ الرَّبِّ، والخطابُ أليقُ بحالِ النَّجوى بين العبد وربِّه، ولو قال: (إنَّا هدنا إلى اللهِ)؛ لكانَ خروجًا عن هذا المقام، وفصلًا للوسيلةِ عن بدايةِ المطْلَبِ؛ لأنَّه ساقَ دعاءَه بالخطابِ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، والوسيلةُ ختْمٌ لدعائِهِ، فيجري الختْمُ على أسلوبِ البدْءِ؛ ليتطابقَ المطلعُ والختامُ.

الـدُّعـاءُ مَـحـلُّ خـطـابِ الـرَّبِّ، والخطابُ أَلْيقُ بـحـالِ الـنَّـجْـوَى بينَه وبين عبْدِه

دَلالةُ تأْخِيرِ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ عن طلَبِ الدُّعاءِ:

دلَّ تأخيرُ جملةِ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ عن طلبِ الدُّعاءِ على جواز الاستعطافِ بالوسيلة بعدَ الدُّعاء؛ لأنَّ الجملةَ تعليليَّةٌ لمَا قبلَها، والوسائلُ تلحقُ المطلوبَ، ولا تتقدَّمُ عليه؛ لأنَّ تقدُّمَ الوسيلةِ على السُّؤالِ نزولٌ في رتبةِ الأدبِ من جهة كونهِ احتجاجًا على المسؤول بها قبلَ السُّؤالِ، فتأخيرُها هو الأدبُ العالي؛ لأنَّ فيه اعتبارَ مقامِ الكريمِ وآثارَ صفاتِه الحسنى مِن بسطِ العطاءِ وسبقِ الرَّحمةِ، قبلَ

تَـقـدُّمُ الوسِيلةِ عـلى الـسُّـؤالِ، نـزولٌ في رُتْـبـةِ الأدَبِ

اعتبارِ كسْبِ الدَّاعي مِنَ العمل، واعتبارُ مقامِ المَلِك أولى في المقام من اعتبارِ مقامِ العبدِ، فقُدِّمَ ما للّهِ، وأُخِّرَ ما للعبدِ، "وإنَّما ذكرَ هذا السَّببَ أيضًا؛ لأنَّ السَّببَ الَّذي يقتضي حُسنَ طلَبِ هذه الأشياء ليس إلَّا مجموعَ هذين الأمرين: كونه إلهًا وربًّا ووليًّا، وقد توسَّلَ به في قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، وكوننا عبيدًا له تائبين خاضعين خاشعين، فالأوَّلُ: عهدُ عِزَّةِ الرُّبوبيَّةِ. والثَّاني: عهدُ ذِلَّةِ العبوديَّةِ، فإذا حصلَا، واجتمعَا، فلا سببَ أقوى منهما"[1].

دَلالةُ فصْلِ قولِه: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها في موقعِ الاستئنافِ البيانيِّ، كأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى له بعدَ دُعائِه؟ فقيل: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾[2]، ودلالةُ الفصل بالاستئناف: إنشاءُ حكمٍ عامٍّ يقعُ على النَّاس جميعًا، ولا يتعلَّقُ بخصوص الدُّعاءِ الَّذي دعا به موسى ربَّه[3]، ففيه التفاتٌ عنِ الخاصِّ بتقرير العامِّ الَّذي يقعُ تحتَ حكمِه، فوكَلَ شأنَهم الخاصَّ لحكمِه العامِّ.

إيجادُ حُكْمٍ عامٍّ، يقعُ على النَّاسِ جميعًا

وفيه إيذانٌ بقَبول توبتِهم بحسب الحكمِ العامِّ لا بحسب تخصيصِهم بالتَّوبة، وممَّا يُذكرُ في سبب الفصلِ: جريانُ السِّياق على طريقة المحاورةِ[4]، وهذا واضحٌ في سياق الآياتِ الواردةِ في هذا المشهدِ، بَدْءًا من قوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ﴾ الآيات.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعذابِ في ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾، دونَ الهَلاكِ:

عبَّرَ بالعذابِ دونَ الهلاكِ؛ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالهلاكُ فناءٌ عامٌّ في العقوبةِ وغيرِ العقوبةِ، في الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ، ويفيدُ زوالَ الشَّيءِ وقطْعَ أثرِه، فليس شرطًا أن يأتيَ في العقوبة، وأمَّا

هنالك فرقٌ بين قصْدِ التّخْويفِ والتّأْديبِ، وبين قَصْدِ الإزالةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/379.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/72.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 5/492.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.

العذابُ؛ فإيجاعُ الشَّيءِ وإيلامُه حتَّى تزولَ عنه عذوبةُ العصيان والهوى، ولا يأتي إلَّا في العقوبة، ويقعُ في الدُّنيا والآخرة، ولم يُستعمَل الهلاكُ في القرآن في الآخرة، وقد لا يُقصَدُ بالعذاب الاستئصالُ والفناءُ، وعبَّر هنا بالعذاب لقصْدِ تخويفِهم وتأديبهم لا زوالهم.

والفائدةُ هاهنا جعْلُ العذابِ محاذاةَ الإهلاكِ الَّذي فهِمَه موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، فجاءَت تلك الجملةُ في حكمِ الجوابِ عليها، وهي قوله: ﴿عَذَابِيٓ﴾، أي: ذلك عذابٌ، وليس إهلاكًا، وهو كأسلوبِ الحكيمِ في الجواب.

دَلالةُ الإضَافةِ في قولِه: ﴿عَذَابِيٓ﴾:

تهويلُ العذابِ والتَّخويفُ منه، مَنهجٌ لعِلاجِ البَشَرِ

الإضافةُ إلى ضمير الجلالةِ تفيدُ تعريفَ العذابِ وتعيينَه، والتَّعريفُ للعهد، أي: عذابُ اللّه الكائنُ منه وحدَه، فإنَّ الإضافةَ للمعرفة تُفيدُ التَّعريفَ، والإضافةَ للنَّكرة تفيدُ التَّخصيصَ، والقصدُ في التَّعريف إفادةُ العهدِ أو الجنس، والقصدُ في التَّخصيص تقليلُ الاشتراكِ[1]، أي: هو عذابٌ منَ اللّه وحدَه لا يشتركُ في إحداث مثلِه أو إحداثِه أحدٌ سواه، ففي إضافة العذابِ للّه تهويلٌ للعذاب وتفجيعٌ منه، وتحضيضٌ على أن يُنسبَ العذابُ الواقعُ لهُ سبحانه لئلَّا يُغفَل عن كونِه منهُ، فيغفُلُوا عن مسارعةِ التَّوبةِ إليه، وفي إضافةِ العذابِ للّهِ تقريرٌ بأنَّ العذابَ حقٌّ لا ظلمٌ؛ لأنَّه منَ اللّه الحقِّ، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإصابةِ، في قولِه: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ التَّعذيبَ واقعٌ بحقٍّ وعدْلٍ

التَّعبيرُ بالإصابةِ في قوله: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾ دونَ التَّعذيبِ؛ ليدلَّ على أنَّه واقعٌ بحقٍّ وعدلٍ لا جَوْرَ فيه، لاشتمالِ الإصابةِ على مَعْنَى القصدِ[2]؛ الَّذي لا يتعدَّى لغير الجاني، ولا يزيدُ على ما ارتكبَه الجاني، فنَفَى عن عذابِه بهذا التَّعبير شيئين: الخطأَ والظُّلمَ، وفي

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/134.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).

التَّعبير بالإصابةِ مَلمَحٌ آخر: وهو إيقاعُ العذابِ على جهةِ التَّخفيفِ مشمولًا بلطفِه وعِظَتِه، ولو قال: أعذِّبُ به مَن أشاء؛ لدلَّ على شِدَّة الملابسةِ وإطباق العقوبةِ وإحاطة العذابِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ لفظَ الإصابة ليس مُتمحِّضًا في العذابِ، فهو يأتي في الخيرِ والشَّرِّ بخلاف العذابِ، فهو مُتمحِّضٌ في إيقاع العذابِ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارع، في قوله: ﴿أُصِيبُ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارع ﴿أُصِيبُ﴾؛ ليدلَّ على حصوله بمقتضاه الحادثِ، وهو تجدُّدُ المعاصي منَ الخلقِ، وليفيدَ أنَّ العذابَ ليس أصلًا في الإرادة، بل هو يحدثُ بحدوثِ سببِه، وليس صفةً من صفاتِ اللهِ الأزليَّةِ كالرَّحمة، بل من أفعالِه المتَرَتِّبةِ على صفة العدلِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى تخويفِ العاصين، وذلك بتجدُّدِ العذابِ كلَّما تجدَّدتِ المعاصي.

العذابُ حاصلٌ بمُقتضَى عِصيانِ الخَلْقِ، لا بمُقتضَى رُبوبيَّتِه

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالإضْمار ﴿بِهِۦ﴾:

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾، ولم يقُل: (بالعذاب)؛ للاستغناء عنه بالظَّاهر السَّابقِ، ولاسيَّما وهو قريبٌ، وليس بينهما فاصلٌ يقتضي الإظهارَ، وفي الإضمار طَيٌّ لِذِكرِ العذابِ إعراضًا عن تكرار لفظه؛ ليُعرِضَ العبادُ عنِ اقترافِ أسبابِه، وفيه أنَّ العذابَ غيرُ مرغوبٍ فيه ذِكرًا وواقِعًا.

في الإضْمارِ طَيٌّ لِذِكْرِ العذابِ، إعْراضًا عن تَكرار لفْظِه

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿مَنْ﴾ الموصولةِ، في قولِهِ: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾:

عبَّرَ هنا بـ﴿مَنْ﴾ الَّتي تفيدُ عمومَ الأفرادِ بخلاف (الَّذي)؛ فهو موصولٌ خاصٌّ[2]؛ من حيثُ الاستعمالُ، ومن حيث الدَّلالةُ، فهو يفيدُ الإظهارَ والتَّحديدَ، وأمَّا ﴿مَنْ﴾؛ فموصولٌ مُشتركٌ في الاستعمال والدَّلالة، فيفيد السِّترَ والإبهامَ، ويكأنَّ اللهَ لا يريدُ التَّشنيعَ على مَن

رحمةُ اللهِ سَبقَت غضبَه، ووسِعَتْ كلَّ شيءٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/192.
(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/123.

يعصي تشنيعًا يخلو منَ الإعذارِ وسبقِ المرحمةِ، بل يريدُ له السَّترَ الَّذي يجعلُه في مُهلةٍ من أمره.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمشيئةِ دونَ الإرادةِ، في قولِه: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾:

الإرادةُ أعمُّ منَ المشيئةِ من حيثُ التَّحقُّقُ والنَّفاذُ، فالإرادةُ قد يُرَادُ بها التَّحقُّقُ فيجب أن تقعَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرّعد: 11]، وقد يُرادُ بها الإنشاءُ مع احتمالِ عدم وقوعِها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: 28]، فهي إرادةٌ ناشئةٌ، لكن لا يلزمُ إنفاذُها، وأمَّا المشيئةُ؛ فهي أخصُّ، وهي جاريةٌ في الواقع النَّافذِ، ولذا عُلِّقَتْ عليها مشيئاتُ الخلقِ، قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]، وقولُه ﷺ: «ماشاء اللّهُ كان»، أي: وقعَ وحصلَ وجوبًا، وعليه: فإنَّ التَّعبيرَ الأنسبَ هاهنا المشيئةُ دونَ الإرادة؛ لأنَّ الإرادةَ احتماليَّةٌ، والمشيئةَ قطعيَّةٌ، ولو قال هنا: عذابي أُصِيبُ به مَن أريد؛ لكان غيرَ مناسبٍ لقوله: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإصابةَ هي وقوعُ العذابِ، فعلَّقه على ما يفيدُ الوقوعَ قطعًا، وهي فِعلُ المشيئةِ.

الإرادةُ اختِماليَّةٌ، والمشيئةُ قطعيَّةٌ، واللـه يفعلُ ما يشاءُ ويريدُ

سِرُّ التَّعْبيرِ بقوله: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾:

علَّقَ العذابَ على مشيئتِه لا على إساءة العبدِ، فقال: أشاءُ، لا: أساء[1]، أوَّلًا: ليُفهَم أنَّ المغفرةَ جائزةٌ عقلًا، ولو من غير توبةٍ؛ للتَّعليق على مشيئةِ الخالقِ لا عملِ المخلوقِ. وثانيًا: ليكون استدراكًا على قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: عذابي ورحمتي تعلَّقَا بمشيئتي لا بكسبِ الأعمال[2]. ثالثًا - وهو النُّكتةُ هاهنا -: أنَّ تعليقَ العذابِ بالمشيئة إيذانٌ بقُربِ المسامحةِ والعفو منَ العذاب؛ لأنَّ مشيئةَ اللّهِ أنهضُ على العفو، وأفسحُ للتَّجاوز من أعمال الخَلقِ الَّتي قد تضيقُ عنهم.

تعليقُ العذابِ بالمشيئةِ دونَ الأعمالِ، مُسامحةٌ وعفوٌ من ذِي الجلالِ

(1) وهي قراءةٌ لا تصحّ. يُنظر: ابن جنيّ، المحتسب: 1/261.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/576.

سِرُّ عدَمِ التَّصريحِ بالمشيئةِ مع الرَّحمةِ:

تعظيمُ أمرِ الرَّحمةِ، دليلٌ على عِظَمِ شأنِها، وجَلالةِ نفعِها

طوى ذِكرَ المشيئةِ في الرَّحمة تعظيمًا لأمرها، وفي عدم تقييدها بالمشيئة نكتةٌ بديعةٌ: وهو أنَّ وسْعَ الرَّحمةِ المذكورَ وتعلُّقَه بـ﴿كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ يدلُّ على أنَّ المرادَ هو الرَّحمةُ العامَّةُ - بدليل العموم - وتلك الرَّحمةُ تسعُ كلَّ شيءٍ قطعًا، وملازمةُ المشيئةِ لذلك أمرٌ أزليٌّ قد فُرِغ منه، فلا حاجةَ لتقديره، بخلاف العذابِ والإصابةِ به، فغيرُ مُتحقَّقٍ فيه هذا اللُّزوم، ولعلَّ هذا ما أراد أن يرمي إليه القشيريُّ بقوله: "لمّا انتهى إلى الرَّحمة لم يعلِّقْها بالمشيئة؛ لأنَّها نفسُ المشيئة، ولأنَّها قديمةٌ، والإرادةُ لا تتعلَّقُ بالقديم، فلمَّا كان العذابُ من صفات الفعلِ علَّقَه بالمشيئة، بعكس الرَّحمة؛ لأنَّها من صفات الذَّات"[1].

وممَّا يُذكَرُ في ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقوله: "والمشيئةُ مُعتَبَرَةٌ في جانب الرَّحمةِ - أيضًا. وعدمُ التَّصريحِ بها للإشعار بغاية الظُّهورِ، يؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾، أي: أُثبتُها وأعيِّنُها، فإنَّه مُتفرِّعٌ على اعتبار المشيئةِ، كأنَّه قيل: فإذا كان الأمرُ كذلك، أي: كما ذُكِرَ من إصابةِ عذابي وسَعَةِ رحمتي لكلِّ مَن أشاءُ، فسأكتبُها كَتْبَةً كائنةً، كما دعوْتَ بقولك: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾[2].

دَلالةُ حَذْفِ مفعولِ المشيئةِ للفعْلِ ﴿أَشَآءُۖ﴾:

مَلْمحُ الإعْظامِ والإجلالِ لذاتِ اللهِ

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ؛ لأنَّه معلومٌ منَ السِّياق قبلَهُ، أي: أشاء إصابتَه أو تعذيبَه، أو أشاء إيَّاه، وفيه دلالةٌ معنويَّةٌ، مفادُها عدمُ العنايةِ بالمفعول، لا من حيثُ إرادةُ إهمالِه أو النَّعيُ عليه، بل من حيث قصديَّةُ عدمِ الإطنابِ في ذِكرِ مُتعلِّقاتِ العذابِ والتَّفصيلِ فيها وإظهارِها، وأيضًا في تجريدِ المشيئةِ عنِ اقتران مفعولِ التَّعذيبِ بها إعظامٌ وإجلالٌ لذاتِ اللهِ، ولاسيَّما في هذا السِّياقِ الَّذي هو

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/576.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

جوابٌ على دعاءِ كليمِ اللّهِ ومصطفاه ﷺ فَطَيُّ المفعولِ في الذِّكر بابٌ من إكرامِ اللّهِ لنجوى نبيِّه معهُ، وفيه إشعارٌ بأنَّ مبدأَ العذابِ عارضٌ مُوجَزٌ، فلا ينبغي التَّعرُّضُ لأسبابِه والخوضُ فيها بالتَّعمُّقِ والزَّلل، وقد "جاء الكلامُ على طريقةٍ مُجملَةٍ شأنَ كلامِ مَن لا يُسألُ عمَّا يَفْعَلُ"[1].

دَلالةُ تَقْديمِ ذِكْرِ العذابِ على الرَّحمةِ:

التَّخويفُ بالعذابِ بابٌ من أبوابِ النَّجاةِ

قوله تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾، قدَّمَ اللّهُ تعالى ذكرَ العذابِ على الرَّحمة؛ لأنَّه يكون لمخالفِ الفطرةِ السَّليمةِ، وللتَّحذير من فعلِ الشَّرِّ؛ ليختارَ المُكلَّفُ فعلَ الخير[2].وممَّا يُذكَر في هذا قول الآلوسيِّ: "ولعلَّ تقديمَ وصفِ العذابِ دونَ وصفِ الرَّحمةِ؛ ليفْرُغَ ذهنُ موسى ﷺ ممَّا يخافُ منه، مع أنَّ في عكسِ هذا التَّرتيبِ ما يُوجِبُ انتشارَ النَّظمِ الكريم، ووصْفُ أخلاقِ بني إسرائيلَ بما وُصِفوا به لاستنهاضِ هِمَمِهم إلى الاتِّصاف بما يمكن اتِّصافُهم به منه أو إلى الثَّبات عليه"[3].

دَلالةُ الإتْيانِ بجُملةِ: ﴿وَرَحْمَتِي﴾ عقِبَ: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾:

تقريرُ عُمومِ رحمةِ اللهِ، بعدَ تقريرِ خُصوصِ العذَابِ

أتى بهذه الجملةِ عقبَ ما قبلَها للدَّلالةِ على عموم رحمةِ اللّهِ بعدَ تقريرِ خصوصِ عذابِه، فالرَّحمةُ تعمُّ، والعذابُ يخصُّ، ولو كان العذابُ عامًّا ما تَرَكَ على ظهرِها من دابَّةٍ.

وأيضًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ معطوفٌ على جملةِ مقولِ القولِ[4]: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ﴾.

دَلالةُ الواوِ، في قولِه: ﴿وَرَحْمَتِي﴾:

الجمْعُ بين التَّرهيبِ والتَّرغيبِ في السِّياقِ

دلَّتِ الواوُ على الجمْعِ بين التَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ لأنَّ في العطف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2966.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/78.
(4) محمود الصّافي، الجدول: 9/93.

محاذاةً ومقابلةً مع "قول موسى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾، وهو وعدُ تعريضٍ بحصول الرَّحمةِ المسؤولةِ له، ولمَن معه منَ المختارين"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالرَّحمة دونَ الحسنةِ:

الرَّحمةُ في هذا السِّياق أعـمُّ، والحسنـةُ آثـرُ منها وأتمُّ

قوله تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، الرَّحمةُ فيه صفةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ للذَّات العليَّةِ، والحسنةُ ما هي إلَّا أثرٌ من آثار تلك الرَّحمة، وفردٌ من أفرادها، فلو قال: (وحسَنَتِي وَسِعَت كلَّ شيءٍ) لم يصحَّ؛ لأنَّ الحسنةَ أثرُ وُسْعِ الرَّحمة، وليست هي الَّتي وسِعَتْ، ولو عبَّرَ بالحسنةِ؛ لاقتضى عدمَ العمومِ المقصودِ من وسعِ الرَّحمةِ، ولكانَت خاصَّةً مثل العذابِ المذكورِ، ولو كان ذلك كذلك؛ لحاذَتِ المغفرةُ العذابَ؛ لأنَّه لا غلبةَ، ولا سبقَ للحسنةِ على العذابِ كما سبقَتْ رحمتُه، وغلَبَتْ، فضلًا عنِ التَّعبير بالحسنة - كما طلبوا في سؤالهم - لا يصحُّ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ المقصودَ بالحسنةِ في سؤالهم العملُ والجزاءُ عليه، وهو مُنفَكٌّ عنِ المَعْنَى المقصود من: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ﴾، ولا يشمَلُهُ، بل هو مشمولٌ في تعبير الرَّحمة.

دَلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾:

تعريفُ الرَّحمةِ وتَعظيمُها، في التّناوُلِ القرآنيِّ

الإضافةُ إلى ضمير الجلالةِ تُفيدُ تعريفَ الرَّحمةِ وتعظيمَها، والتَّعريفُ للعهد، أي: رحمةُ اللهِ الكائنةُ منَ الواحدِ المتعالِ، وإضافتُها لضمير الذَّاتِ العليَّةِ مع قرينةِ وصفِها بالوسعِ والشُّموليَّةِ يفيدُ ذاتيَّتها، وأنَّها أصلٌ في الإرادة والمشيئةِ وسابقةٌ فيهما.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَسِعَتۡ﴾:

رحـمـةُ اللـه عمَّتْ كلَّ شيءٍ، وشـمـلَـتْ كـلَّ الـوُجـودِ بلا حُدودٍ

التَّعبيرُ بالوسع؛ لعدم غائيَّةِ الإحاطةِ فيه، فلا يُلمَحُ فيه الحدودُ، ولذا قرنَهُ بالعمومِ بعدَهُ، فهو لفظٌ "مُستعمَلٌ مجازًا في الإحاطة بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ الواسعَ يكون أكثرَ إحاطةً"[2]، ولسَعةِ هذا اللَّفظ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/11.

مصاديقِه، فهو يُقال في "الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل"[1]، وهو لفظٌ واسعٌ كذلك في أدائه الصَّوتيِّ، وهو يدلُّ على انفتاحٍ وانشراحٍ حسِّيٍّ ومعنويٍّ، وفيه بشارةٌ لموسى ومَن معه بقَبول دعاءِ اللّٰهِ منهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿وَسِعَتْ﴾:

مَلمحُ المفاضَلةِ بين الرَّحمة والعذابِ، بدلالةِ الإسنادِ إلى مُتغايرَيْن في الصِّيغةِ

عبَّر بالماضي ﴿وَسِعَتْ﴾ للدَّلالة على أنَّ سعةَ رحمةِ اللّٰهِ أمرٌ مُقدَّرٌ أزليٌّ، وفيه إيذانٌ بأنَّ الرَّحمةَ مُقتضى ذاتِ اللّٰهِ سبحانه[2]؛ وفي ذلك إيماءٌ إلى المفاضلة والمفارقة بينها وبين العذاب الَّذي عبَّر عنه بالمضارع ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾، وقد سبقَ في مَوضِعِه.

دَلالةُ اخْتِيارِ ﴿كُلَّ﴾ دونَ (جميع):

دَلالةُ (كلّ) على الاستِغراقِ الحَصْريِّ، و(جميع) على العُمومِ الإحاطيِّ

قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، آثرَ التَّعبيرَ فيه بـ﴿كُلَّ﴾ دون (جميع)؛ لدلالة ﴿كُلَّ﴾ على الاستغراقِ الفرديِّ أو التَّفصيليِّ، ودلالةِ (جميع) على الاستغراقِ الجمعيِّ أو التَّوزيعيِّ.

فـ(كلٌّ) [3] "تدلُّ على كلِّ فردٍ بطريق النُّصوصيَّة، بخلاف (جميع) فإنَّه يدلُّ على (جميع) الأفرادِ، وهو الَّذي يُرادُ من قولهم، وإنَّ (جميع) للعموم الإحاطيِّ"[4]، فلو قال: وَسِعَتْ رحمتي جميعَ الأشياء؛ لكانتِ الرَّحمةُ مُستغرِقةً لمجموعهم مُوزَّعةً على مجموعهم بانقسامها عليهم، فلو قال مثلًا أميرٌ لجنده: (كلُّ مَن دخلَ هذا الحصنَ أوَّلًا؛ فله ألفُ دينارٍ)، فدخله واحدٌ؛ استحقَّ الألفَ، وإن دخلوه جميعًا؛ استحقَّ كلُّ واحدٍ منهم ألفًا. وإذا قال لهم: (جميعُ مَن دخلَ هذا الحصنَ أوَّلًا؛ فله

(1) الرّاغب، المفردات: (وسع).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

(3) كلمة (كلّ) إذا دخلَت على النّكرة أوجبَت عمومَ أفرادها على سبيل الشّمول دون التّكرار، وأمّا كلمةُ (الجميع)؛ فإنّه مُتعرِّضٌ لصفة الاجتماع، فـ (كلّ) عامٌّ بمعناها دونَ صيغتها فتحيط على سبيل الإفرادِ، و(جميع) منَ العامِّ معنًى، فتوجب إحاطةَ الأفرادِ على سبيل الاجتماعِ دون الانفراد. يُنظر: الكفويّ، الكلّيّات: 1/600.

(4) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/145.

ألفُ دينار)، فدخله واحدٌ؛ استحقَّ الألفَ، وإن دخلَهُ جماعةٌ؛ استحقُّوا ألفًا، فقُسِّم بينهم[1].

دَلالةُ التَّعْبير بـ﴿شَيْءٍ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿شَيْءٍ﴾؛ ليشمَل الأشياءَ والأشخاصَ، فيكون عامًّا في الذَّواتِ والأعراضِ والجماداتِ والحيواناتِ، فـ﴿شَيْءٍ﴾ نكرةٌ منوَّنةٌ تفيدُ العمومَ، أي: شيءٌ مِنَ الأشياء[2]، فاصطفاءُ اللَّفظِ يفيدُ عمومَ الرَّحمةِ على الأشياء والأشخاص حتَّى استغرقَتِ الذَّرَّاتِ، كما استغرقَتِ المجَرَّاتِ.

وُسْعُ الرَّحمةِ وعُمومُها، دالٌّ على أنَّها استغرقَتِ الذَّرَّاتِ، كما استغرقَتِ المجرَّاتِ

دَلالةُ الإفرادِ في قولِه: ﴿شَيْءٍ﴾:

عبَّر بالمفرد دونَ الجمعِ (أشياء)؛ لإفادة التَّنصيصِ على مَعْنَى استقلالِ كلِّ فردٍ بنصيبِهِ الثَّابت في الرَّحمة، ولو قال: (وَسِعَتْ كلَّ الأشياء)؛ لاَقْتَضى العمومَ مع إفادة الإخبارِ بالاجتماع في الحدث، وأمَّا الإفرادُ؛ فمعناه أنَّ كلَّ واحدٍ قامَ به على انفراد[3]، وهذا أبلغُ؛ لتصوير وِسْعِ الرَّحمةِ قائمًا بكلِّ شيءٍ على حِدَةٍ من غير تقييده باجتماعهم، وثمرةُ هذا التَّعبير: إفادةُ الدَّلالة على الرَّحمة الخاصَّةِ والعامَّة، والدَّلالةِ على أنَّ كلَّ فردٍ قامَ به وسعُ الرَّحمةِ كاملًا.

تصويرُ وُسْعِ الرَّحمةِ، قائمٌ بكلِّ شيءٍ على حِدَتِه، من غير تقييدِه باجْتِماعِهم

دَلالةُ الجمْعِ بين ﴿كُلَّ﴾ و﴿شَيْءٍ﴾ في الآيةِ:

﴿كُلَّ﴾ تدلُّ على العموم الشُّموليِّ، و﴿شَيْءٍ﴾: "اسمٌ مُتوغِّلٌ في التَّنكير دالٌّ على نوعٍ ما يصلُحُ له سياقُ الكلام"[4]، وهو هنا نكرةٌ في سياق الإثباتِ، والمقامُ مقامُ امتنانٍ[5]، وهي تدلُّ على العموم البدليِّ الَّذي يفيدُ الشُّيوعَ من غيرِ تعيينٍ، ولكنَّ مجيئَها بعد كلٍّ جعلَها

إفادةُ تمامِ الاستِغراقِ، وكمالِ سَعةِ الرَّحمةِ، لكلِّ الأجناسِ

(1) البزدويّ، كنز الوصول: 2/9.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2966.
(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/215.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 601.

صادقةً على جميع أفرادها بالتَّعيينِ والاستغراقِ، وهذا الاقترانُ بين العمومين (الاستغراقيِّ والإطلاقيِّ) يفيدُ تمامَ الاستغراقِ وكمالَهُ لغرض المبالغةِ في استحواذِ سَعةِ الرَّحمةِ على كلِّ الأجناسِ بأفرادِها المتعيِّنةِ، فلا يخرجُ منها شيءٌ.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾:

التَّفريعُ على سَعة الرَّحمةِ، لتخصيصِ ما يُكتبُ منها في المستقبَلِ

دلالةُ تلك الفاءِ التَّفريعُ على سَعة الرَّحمةِ؛ لأنَّها لمّا وسعَت كلَّ شيءٍ، خُصَّ منها ما يُكتَب، أي: يُعطَى في المستقبل[1]، وهي عاطفةٌ لِرَبط المُسبَّب بالسَّبب[2]، فهي فاءُ التَّسبيب، أو هي استئنافيَّةٌ مَسوقةٌ للتَّعريض بقوم موسى[3].

سِرُّ اخْتِيارِ السِّين دونَ (سوف)، في قولِه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾:

السِّينُ أسرعُ من سَوْفَ، وتدلُّ على اسْتِيفاءِ الاسْتحقاقِ، فورَ تحقُّقِ شَرطِهِ

آثرَ اختيارَ السِّينِ؛ للدَّلالة على التَّعجيلِ بفعل الكتابةِ، وأنَّه قريبٌ منَ المُتحقِّقِ بشرطهِ قربَ الرَّحمة ممَّن استحقَّها باقترابهِ منَ المُتَّصفِ بها ﷺ فالسِّينُ أسرعُ في الاستقبال من سوف، وهي دلالةٌ على استيفاء الاستحقاقِ فورَ تحقُّقِ شرطِهِ، هذا والسِّينُ قد تكون للتَّوكيد وليس للاستقبال[4]، أي: (فأكتبها) على جهةِ الوعد المؤكَّدِ، و(سوف) لا تحتملُ توكيدًا، بل هي للاستقبال فحسْبُ، فأتى بالسِّين ليكونَ جاريًا على المعنيَين.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكتابة دونَ الإعطاءِ أوِ المَنْحِ:

أهميّةُ تقاطُعِ الجوابِ مع السُّؤالِ، في مضمونِهِ ومنطوقِهِ

ليكونَ الجوابُ من جنس السُّؤالِ في المحاذاة والاقتباس، فمِنَ البلاغة أن يتقاطعَ الجوابُ مع السُّؤال في مضمونهِ ومنطوقه، فتُجيبَ منَ السُّؤال على السُّؤال، وهذا من حُسن الجوابِ، فلمَّا قال موسى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾؛ كان الجوابُ مُرَاعىً فيه قصدُ السَّائلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/130.
(2) صافي، الجدول: 9/93.
(3) درويش، إعراب القرآن: 3/468.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/75.

ومرادُه، فأخذ مرادَه من لفظِه، وأجابَ به عليه، يؤكِّد ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقولِه: "فسأكتبها كتبةً كائنةً كما دعوتَ بقولك: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾"[1].

دَلالةُ عدَمِ ذكْرِ فاعلِ كتابةِ الرَّحمةِ:

اطِّـرادُ الـكـلامِ عـلى أُسـلُـوب التَّكلُّمِ، أبْلغُ مِنَ الالْتفاتِ للغَيبةِ

الكلامُ جارٍ على أسلوب التَّكلُّم: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾.. ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾، فلم يكن يصحُّ ذكرُ الفاعلِ إلَّا على وجه الالتفاتِ للغَيبة فسيكتبُها اللهُ، مع عدَمِ لزومِه أيضا إذا أُضمِر؛ لأنَّه مقامُ إضمارٍ، واطِّرادُ الكلام على أسلوب التَّكلُّم أبلغُ منَ الالتفات للغيبةِ؛ لأنَّ كتابةَ الشَّيء فرعٌ عن مقامِه، فإذا كان الشَّيءُ شريفًا كانت كتابتُه شريفةً، فكذلك هنا: لمّا أضاف الرَّحمةَ لنفسه تعظيمًا وإجلالًا، فقال: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾ بضمير المتكلِّم، ولم يقُل: ورحمتُهُ، اقتضى ذلك أنْ يُسنِدَ الكتابةَ أيضا لضمير المتكلِّم، فقال: سأكتبُها؛ لأنَّ الكتابةَ تأخذُ مقامَ المكتوبِ ورتبَتَهُ.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ كتابة الرَّحمةِ بالإضمارِ، دونَ الإظْهارِ:

إعـادةُ الرَّحـمةِ بـلـفْـظِـهـا دونَ ضميرِها، خلافُ الأصـلِ، لِـعـدَمِ مـا يـقـتـضِي الإظهارَ

عبَّرَ عنِ الرَّحمة بالضَّمير في قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾؛ لدلالةِ السَّابقِ عليه بما يُغني عن إعادته بلفظه؛ لأنَّ في إعادة الرَّحمةِ بلفظها دونَ ضميرها خلافًا للأصلِ لعدم ما يقتضي الإظهارَ، ولأنَّه قد لا يُقصَدُ جنسُ الرَّحمةِ، بل يَكتب قسطًا منها أو فردًا منها، لجواز عود الضَّميرِ على بعضِ مرجعِه.

دَلالةُ اخْتِيارِ اسْمِ الموصولِ ﴿لِلَّذِينَ﴾ دونَ (مَنْ):

دَلالـةُ الموصولِ الـخـاصِّ عـلى الـنَّـصِّ، والاخْـتِـصـاصِ بالشَّأنِ والمقامِ

مَن كُتِبَت له الرَّحمةُ؛ فهو حقيقٌ بالنَّصِّ والاختصاصِ والتَّنبيهِ على الشَّأن والمقام، وهذا مقابلُ استعمال ﴿مَنۡ﴾ في ﴿مَنۡ أَشَآءُۖ﴾، وليس المرادُ تعيينَ ذواتهم، بل تعيينَهم بالصِّفة، كأنَّما أنزَلَهُم مَنزلةَ المتَعَيَّنِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالتَّقوَى، في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾:

التَّقوَى غايةُ العملِ، ورحمةُ اللهِ غايةُ الأمَلِ

لأنَّ مقاصدَ الشَّرع مُتعيِّنةٌ في التَّخلُّقِ بها حتَّى جعلَها اللهُ غايةَ الغايات، فالعبادةُ هي غايةُ الخلقِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: 56]، والتَّقوى هي غايةُ العبادة: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: 21]، فإذا كانت هي غايةَ العملِ؛ فإنَّ رحمةَ اللهِ هي غايةُ الجزاء، فجعل الرَّحمةَ مشروطةً بالتَّقوى.

وممَّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبيرِ بالتَّقوى أنَّها تشيرُ إلى اتِّقاء الكفر والمعاصي، إمَّا ابتداءً أو بعدَ مُلابستِهما، وفيه تعريضٌ بقوم موسى، كأنَّه قيل له عليه السلام: لا لقومِك؛ لأنَّهم غيرُ مُتَّقين، فيكفيهم ما قُدِّرَ لهم منَ الرَّحمةِ وإن كانت مُقارِنَةً للعذابِ الدُّنيويِّ[1].

دَلالةُ التَّعْبير بالمضارع: ﴿يَتَّقُونَ﴾:

كثرةُ وُقوعِ الفعلِ منهم، وإفادةُ صَلاحِ الظَّاهرِ

في التَّعبيرِ بالمضارع المُتجَدِّدِ إفادةُ كَثْرةِ وقوعِ الفعلِ منهم، وإفادةُ صلاحِ الظَّاهرِ وحُسْنِ السَّمْتِ بالتَّقوى؛ لأنَّ معنى تجديدِ الفعلِ وحدوثِهِ تصويرٌ لِتَكرار فعل التَّقوى منهم، فهو يقعُ مرَّةً بعد مرَّةٍ، وللدَّلالة على أنَّ التَّقوى تتحقَّقُ بتجديدِ العملِ وعدمِ التَّواني في شأن اعتيادِه بالتَّكرارِ والإعادة.

دَلالةُ (الواوِ)، في: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

ترتيبُ (الزَّكاةِ) بعدَ (التَّقوَى)، يدلُّ على أنَّ التَّزكيةَ لا تحصُلُ إلَّا بالاتِّقاءِ والتَّزكِ

الجملةُ نَسَقٌ على ما قبلَها، وهو قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾، أي: سأكتبُ الرَّحمةَ للموصوفينَ بهذين الفعلين: ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ﴾، وفي الجمعِ بينهما دون غيرِهما تعريضٌ بقوم موسى عليه السلام فالتَّقوى دواءٌ لِقسوةِ قلوبِهم وعدمِ تَناهِيهم عنِ المنكرات، وإيتاءُ الزَّكاة علاجٌ لِجمودهم على المادَّة وإطلاقِ أيديهم بالحرام فيها، وإمساكِهم لها عنِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

الإقراض الحسنِ وبذلِ المعروفِ وأخْذِ المالِ بحقِّه، وإنفاقه بحقِّه، وكلُّ ذلك دواؤهُ الانقيادُ للّهِ في الظَّاهر والباطنِ؛ لأنَّ التَّزكيةَ لا تحصلُ إلَّا بالاتِّقاءِ والتَّرك.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ في الزَّكاة:

الإيتاءُ لم يُسنَدْ إلَّا للشَّيءِ العظيمِ، ذي الشَّأنِ الفَخيمِ

وردَ الإيتاءُ في الزَّكاة دون الإعطاءِ لثلاثة اعتباراتٍ: الأوَّل: يتعلَّقُ بالفاعل(المؤتِي)، فهو يدفعُ الزَّكاةَ عن طيب نفسٍ لا عن إكراهٍ، ولو قال: (يُعطُون)؛ لاحتملَ كُرْهَ النَّفسِ، كما قال في الجزية: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التَّوبة: 29]، فجعلَ الإعطاءَ فيما كان عن غلبةٍ وقهرٍ، والثَّاني: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى)، وهو الشَّيءُ المبذولُ، فإنَّ الإيتاءَ يكونُ في الشَّيءِ عزيزَ القيمةِ كثيرَ المَنفَعَةِ عظيمَ القدرِ، ولو قال: (يُعطون) لاحتملَ إعطاءَ البخْسِ والقليلِ، كما أسندَ العطاءَ للقليل في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النَّجم: 34]، وأمَّا الإيتاءُ؛ فلم يُسنَد إلَّا للعظيم والكثير: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [ص: 20] ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99] ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النِّساء: 54]، فإسنادُ الإتيانِ للزَّكاة إعظامٌ لشأن الفريضةِ وإجلالٌ لمكانها في الشَّرع، فالإيتاءُ للكثير، والإعطاءُ للكثير والقليل بحسب قرينةِ السِّياق، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتقَلُ عنه إلى ما هو أعلى منه، ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: 1]؛ لانتقاله منَ الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنَّةُ ومزايا النَّعيم الأحسن[1]، والثَّالث: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى إليه)، وهو آخِذُ الزَّكاة، من حيثُ إنَّ إيتاءَه الزَّكاة لا يتوقَّفُ على قبولِه وموافقته، فهو حقيقٌ بها من غير اعتبار موقفِه، ولذا كان فعلُ الإيتاء أقوى منَ الإعطاء، ومِن ثَمَّ كان فِعلُ الإيتاءِ لا مُطاوعَ له من لفظِه، كما في الإعطاءِ، "يُقال: آتاني فأخذْتُه، وفي الإعطاء يُقال: أعطاني فعطوْتُ، وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثبات

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.

مفعولِه ممَّا لا مطاوعَ له"[1]، ولو قال: (ويُعطون الزَّكاة)؛ لاحتملَ توقُّفَهُ على القَبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التَّوبة: 29]، فإنَّ عطاءَهم الجِزيةَ مُتوقِّفٌ على القَبول مِنَّا، ودلالةُ ذلك هنا: التَّنبيهُ على كون الزَّكاةِ حقًّا لله خالصًا، والغنيُّ والفقيرُ ما هما إلَّا وكِيلان في مُداولَة هذا الحقِّ بينهما، فلا الغنيُّ يستكثرُ على الفقيرِ، فيمُنُّ بزكاتِه، ولا الفقيرُ يستنكرُ على الغنيِّ، فيُعرِضُ، أو يرفضُ، أو يتحرَّج.

دَلالةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾ على المواظبةِ وتكرارِ الفِعل، كلَّما حضرَ وقتُ أداءِ الزَّكاة وتحقَّق شرطُه، فصيغةُ المضارع لنفي المَرَّة ولثبوت التَّكرار.

المـواظـبـةُ على إيتاءِ الزَّكاة، من أسبابِ السُّموِّ والتَّراحُمِ

سِرُّ انفِرادِ إيتاءِ الزَّكاة عنِ الصَّلاة:

أفردَ الحديث عن إيتاء الزَّكاةِ دون الصَّلاةِ؛ لأنَّها داخلةٌ في أفعال التَّقوى؛ إذِ التَّقوى تُروكٌ وأفعالٌ، ولم يُفصح عنها باستقلالٍ لغرض التَّنبيهِ على ما يُناسِبُ ما تمكَّنوا فيه منَ المحاذير، فاحتاجوا لبيانِ ما هو خلاصةُ دَوَاهم بأنسبِ سببٍ لمقتضى حالهم، و"لأنَّ فتنةَ حبِّ المالِ تقتضي بنظر العقلِ والاختبارِ بالفعل أن يكونَ المانعون للزَّكاة أكثرَ منَ التَّاركين لغيرها منَ الفرائض، وفيه إشارةٌ إلى شدَّة حبِّ اليهود للدُّنيا، وافتتانهم بجمع المالِ، ومنْعِ بذلِه في سبيل الله"[2]، ولعلَّ الصَّلاةَ إنَّما لم تُذكَر مع إنافتها على سائر العبادات، وكونِها عمادَ الدِّين، اكتفاءً منها بالاتِّقاء الَّذي هو عبارةٌ عن فعل الواجباتِ بأسرها، وترك المنهيَّاتِ عن آخرها[3].

التّـقـوَى جِماعُ كـــلِّ خـــيْرٍ، ومَوئِلُ كلِّ مَبرّةٍ وعِصمةٍ

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/73.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالزَّكاة دونَ الصَّدقة:

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، عبَّرَ فيه بالزَّكاة دونَ الصَّدقة؛ للدَّلالة على أنَّها من تشريعِ اللهِ لبني إسرائيل على لسان موسى ﷺ وهذا ظاهرٌ في آياتٍ كثيرةٍ منَ القرآن، ولا يُقال: إنَّ الزَّكاةَ هي زكاةُ النُّفوسِ بسببِ مكِّيَّةِ السُّورة؛ لأنَّ زكاةَ النُّفوسِ لا يُعبَّرُ عنها بفعلِ الإيتاء، ولانفكاك الجهةِ بين المكِّيَّةِ وإيتاءِ الزَّكاة هنا؛ إذِ الكلامُ واردٌ في حيِّزِ الجوابِ على دعاءِ موسى ﷺ وقد كانتِ الزَّكاةُ شرعًا لهم قبل بعثةِ الرَّسولِ محمَّد ﷺ فالكلامُ جارٍ على ما كان لهم قبلَ البَعثَة.

الزَّكاةُ من شريعةِ بني إسرائيلَ، ومأمورُ كلِّ الشَّرائعِ السَّماويَّةِ

سِرُّ البَدْءِ بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾:

بدأ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، قبْلَ قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنَّ التَّقوى هي أصلُ قَبولِ التَّكاليفِ منَ اللهِ، وأصلُ الاستعدادِ لها منَ العبد، فلا يقبَلُ اللهُ إلَّا منَ المتَّقين: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 27]، ولا يأتمرُ العبدُ للتَّكليفِ من غير نيَّةِ التَّقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: 17] ليتقوَّوا بها على امتثالِ التَّكاليف.

التَّقوَى هي اضطلاعٌ بالتَّكليف، والتَّكليفُ تحقيقُ التَّقوَى

دَلالةُ (الواوِ) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾:

العطفُ للمغايرة بين ما في حيِّز الموصولين منَ الصِّلة، فالَّذين يتَّقون ويؤتونَ الزَّكاةَ غير الَّذين هم بآيتنا يؤمنون، مغايرةً في الصِّفاتِ لا في الذَّوات، للتَّنبيهِ على الفرقِ بين مفهومِ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة ومفهومِ الإيمان.

تقريرُ الفرقِ بين مفهومِ التَّقوَى، وإيتاءِ الزَّكاة، ومفهومِ الإيمانِ

سِرُّ إعادةِ اسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، فـ"نكتةُ إعادةِ الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مع الضَّمير ﴿هُم﴾؛ إمَّا جَعْلُ الموصول الأوَّل عامًّا لقومه الَّذين دعا لهم، ممَّن استمرُّوا على التزام التَّقوى وأداء الزَّكاة منهم، وجعْلُ الثَّاني خاصًّا بمَن يدركون بعثةَ خاتمِ الرُّسلِ ﷺ ويتَّبعونه - كما يُعلَمُ ممَّا بعده، وإمَّا لبيان الفصلِ بين مفهومِ

إعادةُ الموصولِ قد يُفيدُ المغايرةَ، بين ما في حيِّزِهما مِنَ الصِّلةِ

الإسلام ومفهوم الإيمانِ، والتَّعريضِ بأنَّ الَّذين طلبوا من موسى أن يجعلَ لهم آلهةً والَّذين عبدوا العجل، والَّذين قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: 55] لم يكونوا مؤمنين بآياتِ اللّٰهِ العامَّة ولا الخاصَّة الَّتي جاء بها نبيُّهم.

وممَّا يؤكِّد ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقوله: "وتكريرُ الموصولِ مع أنَّ المرادَ به عينُ ما أُريد بالموصول الأوَّل، دون أن يُقال: (ويؤمنون بآياتنا) عطفًا على ﴿يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، كما عُطِف (هو) على (يتَّقون) لمّا أُشير إليه منَ القصْرِ بتقديم الجارِّ والمجرور، أي: هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضِها دونَ بعضٍ"[1].

دَلالةُ الإتْيانِ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُم﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾، يتضمّن ضمير الفصل، وفائدةُ ضميرِ الفصلِ: الحصرُ والتَّوكيدُ، وفصلُ الخبر عنِ الصِّفة بتعيُّن الخبرِ، أي: سأكتبُ الرَّحمةَ للمؤمنين لا لغيرهم قصرًا عليهم واختصاصًا بهم، والقصرُ هنا حقيقيٌّ، ويفيدُ التَّوكيدَ، أي: الَّذين هم يؤمنون حقًّا وقطعًا مؤكَّدًا، فالتَّوكيد لإفادةِ الكمالِ، ويفيدُ أنَّ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرٌ للموصول لا صفةٌ. وفيه إشارةٌ للتَّعظيم من شأن المؤمنين وشأنِ الآياتِ وشأن الإيمانِ، وهو مُتوجِّهٌ (أصالةً) لأصحاب الضَّمير، (وتَبَعًا) لموضوعِ الإيمان (الآيات)، وفعلِ الإيمان ذاته.

ضَميرُ الفصْلِ يُفيدُ الحصْرَ والتَّوكيدَ، وفصْلَ الخبرِ عنِ الصِّفةِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالآياتِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

لإفادة عمومِ المُسمَّى، لتنتظمَ فيها الآياتُ المتلوَّةُ والآياتُ المشهودةُ. وقد عبَّرَ بالجمع لإفادة الشُّمولِ؛ للإيمان بجميع الآياتِ، ولو أفردَ؛ لساغ الإيمانُ بآحادِ الآياتِ دون مجموعِها، وهذا غيرُ مرادٍ.

التَّعْبيرُ بالجمْعِ (بآياتنا) دونَ الإفْراد، مُبيِّنٌ للغايةِ والمُرادِ

دَلالةُ الإضافةِ إلى نونِ العظمةِ، في: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الإضافةُ إلى نون العظمةِ التفاتٌ منَ التَّكلُّم الإفراديِّ إلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.

الجمعيِّ، والإسنادُ لضميرِ العظمةِ جارٍ على أسلوب المُتكلّم في ﴿عَذَابِي﴾، ﴿وَرَحْمَتِي﴾، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾، فكما أُسنِدَ فيها للضَّمير؛ أُسنِدت الآياتُ للضَّمير، وجاءَ بالنُّون تعظيمًا لآياته، ونونُ العظمةِ أعرفُ منَ الإسنادِ لظاهرٍ، والمقامُ مقامُ ترهيبٍ وترغيبٍ، فناسَبَ تعريفَ الآياتِ بأعرفِ المعارف.

الإضافةُ إشارةٌ إلى عِظَمِ الآيات ومَنزلتِها، وزيادةُ تَرغيبٍ وترهيبٍ

دَلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

وتقديمُ الجارِّ والمجرور يفيدُ الحصرَ، أي: بكلِّ آياتنا، وفي هذا تعريضٌ ببني إسرائيلَ في عدم إيمانِهم بالنَّبيِّ ﷺ وما أُنزِلَ عليه منَ الآيات.

تَبريزُ الآياتِ، تَعريضٌ بكُفرِ أهلِ الكتابِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

لأنَّ المقصودَ الحقيقةُ الشَّرعيَّةُ للإيمان اعتقادًا وقولًا وعملًا، ولو قال: (يصدِّقون)؛ لكان أخصَّ، ولا يستلزمُ مقتضياتِ الإيمانِ منَ الإذعانِ والقبول، فقد يصدِّقُ، ولا يعملُ، وقد يصدِّقُ، ولا يَنْقادُ، والإيمانُ جامعٌ لتلك الشَّرائط جميعًا.

الإيمانُ أعمُّ مِنَ الصِّدقِ، لاقتضائِه عَمَلَ الباطنِ والظَّاهرِ معًا

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارع: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

يدلُّ على توقُّعِ الإيمانِ وتكراره وتمامِ الجاهزيَّة له، فكلَّما ظهرَت آيةٌ؛ حدثَ لها إيمان، وكلَّما جدَّتْ عزيمةٌ؛ أحدثوا لها إيمانًا، والصِّيغةُ إشارةٌ إلى الاستمرار على عهد الإيمانِ من غير إخلالٍ به.

صِيغةُ المضارعِ تُفيدُ المُطاوعةَ، والانْفِعالَ المتكرِّرَ

بَلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ في الآيةِ:

استهلالُ الآيةِ بالدُّعاء: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾، وختْمُها بالإيمان ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو ختامٌ لُوحِظ فيه مَطلَعُه، فالختْمُ مردودٌ على المَطْلَع ردَّ النَّتيجةِ على المقدِّمة بأنسبِ صيغةٍ لفظًا ومعنًى، فكأنَّه قيل: شرطُ استجابةِ الدُّعاء الإيمانُ، فمَن يؤمِنْ؛ يُستَجبْ له، وتعليقُ الإيمانِ بالآيات له موقعُه أيضًا، في البَدْءِ، فإنَّ الاستجابةَ هي إراءةُ الدَّاعي آياتِ تحقيقِ سؤالِهِ، فكأنَّه قيل: لن تشهدوا آياتِ تحقيق

فاصلةُ الآيةِ، ودَورُها في الإبانةِ عنِ المُرادِ في السِّباقِ

الدُّعاءِ، حتَّى تؤمنوا بآياتي الَّتي أوحيتُها لرسلي، فهذا من ذاك، فاستجيبوا له؛ يُستجَبْ لكم.

سِرُّ خِتامِ الآيةِ بصِفةِ الإيمانِ:

الإيمانُ أعمُّ منَ التَّقوَى، واستعمالُ كلٍّ منهما في موضعِه، من فصيحِ البيانِ

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعد قوله: ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، من بابِ ذِكرِ العامِّ بعد الخاصِّ، وهو وجْهٌ من وجوه الإطنابِ، فالإيمانُ أعمُّ منَ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة، وفائدةُ ذلك التَّنصيصُ على شرطِ صِحَّةِ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة، وأنَّها لا تَصِحُّ إلَّا بالإيمان، ليستوفيَ بذكرِه جميعَ أنواعِ التَّكليفاتِ الظَّاهرةِ والباطنة، فـ﴿يَتَّقُونَ﴾ عبارةٌ عنِ (التُّرُوك)، وهو ما يَجِبُ على الإنسانِ تركُه، و﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عبارةٌ عنِ (الأفعالِ الَّتي تتوجَّه للآخرين بإخراج المالِ)، و﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ عبارةٌ عنِ (الأفعالِ الَّتي تتوجَّه للنَّفس، وتجِبُ عليها) اعتقادًا ومعرفةً بالقلبِ، وعمَلًا باللِّسانِ والأركان[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذابُ والعقابُ:

العقابُ لا يكون إلَّا بسببٍ، ولا يُشترطُ فيه الإيلامُ

العذابُ والعقابُ كلاهما مُستعمَلٌ في المجازاة، إلَّا أنَّ العذابَ يكون بسببٍ أو من غير سببٍ، والعقابُ لا يكونُ إلَّا بسببٍ؛ لأنَّه يأتي عَقِبَ ذنبٍ أو سببٍ يوجبهُ، وفارقٌ دقيقٌ أيضًا بينهما: هو أنَّ العذابَ مُشتمِلٌ على الإيجاعِ والإيلامِ، والعقابُ لا يلزمُ فيه وجعٌ وألمٌ، ولأجلِ هذا لم يجئْ العذابُ في القرآن مضافًا لياء الملكيَّة غيرَ اللهِ، كقوله هنا: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: 7]، ﴿عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: 50]، وأمَّا العقابُ؛ فأُضيفَ لفاعلٍ غيرِ اللهِ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: 126]، وتلك الآياتُ شاهِدَةٌ كذلك على أنَّ العقابَ لا يُشترطُ فيه الألمُ والإيجاعُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/379.

خلاف العذاب، ومن شواهد أنَّ العذابَ يكون بغير سببٍ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 49]، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: 47]، فلم يكن ذلك عنِ استحقاقٍ[1].

وعليه: فبينَ العذابِ والعقابِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فالعذابُ أعمُّ من جهةِ السَّببيَّةِ والاستحقاقِ: فهو يكونُ بسببٍ أو من غير سببٍ، والعقابُ لا يكونُ إلَّا بسببٍ واستحقاقٍ، ومن جهة الأثرِ والكيفِ: فالعقابُ أعمُّ مِنَ العذاب؛ إذِ العقابُ يكون يسيرًا أو عظيمًا، ويكون مُوجِعًا مُؤلمًا، وقد لا يكون كذلك، وأمَّا العذابُ؛ فهو إزالةُ عذوبةِ البدنِ والنَّفسِ بالإيجاعِ والألمِ الشَّديدَين، فهو أخصُّ.

ونكتةُ استعمالِ العذابِ هنا في الآية، فقال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾، ولم يقُل: (عقابي)؛ لقصد التَّرهيب، فإنَّ التَّرهيبَ في العذاب أشدُّ، وبسببِ أنَّه علَّقَ العذابَ على المشيئة، ولم يعلِّقْهُ على الأسباب والأعمال، فناسبَ العذابَ دونَ العقابِ، ولاستحضار الجانبِ الحسِّيِّ في العذاب الَّذي يناسبُ طبيعةَ بني إسرائيلَ المادِّيَّةَ الَّتي حملتْهم على العصيان الحسِّيِّ بطلبهم رؤيةَ اللّٰهِ جهرةً عيانًا، فرهَّبهم بما هو جنسٌ من معصيتهم، وهو العذابُ الَّذي يوجعُهم، ويفسدُ حواسَّهم بالألم والإتلاف.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»